مجلة الإحياء، المجلد: 22، العدد: 30، جانفي 2022، ص - ص: 1163 – 1172
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

نظرية تقويم التراث عند طه عبد الرحمن

Heritage evaluation theory for Taha Abdel Rahman

طالب دكتوراه جمال بروال[1] د/ بوالسكك عبد الغني
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة باتنة1
مخبر الانتماء: حوار الحضارات والعولمة
djamelphilo@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/01/09 تاريخ القبول: 2021/06/27

الملخص:
لقد كثرت المشاريع الفكرية في الفكر العربي المعاصر، والتي اتخذت من التراث كمنطلق لتحقيق التغيير الاجتماعي والنهوض الحضاري للأمة، حيث قدم أصحابها تصورات ونظريات حول التراث وفق دراسات متعددة المناهج والمرجعيات المعرفية في ضوء مذاهب وتيارات فلسفية وتحليلات مختلفة انشطرت إليها ساحة الفكر العربي الإسلامي.

ولعل من أبرز المشاريع والقراءات المعاصرة التي لها صيتها ووجودها في الفكر العربي المعاصر، نذكر نظرية تقويم التراث عند المفكر والفيلسوف المغربي طه عبد الرحمن، الذي قام بتقديم قراءة للنص التراثي وفق منحى غير مسبوق يأخذ بالنظرة الشمولية والتكاملية إلى التراث وليس بالنظرة التجزيئية والتفاضلية، وبأدوات مأصولة وليس بأدوات منقولة.

إن هذا المقال يستهدف معرفة أسباب إنشاء طه لنظرية التراث ودواعي الاعتراض على النظريات السابقة، هذا بالإضافة إلى معرفة أهم المقاصد التي يستهدفها هذا الإنشاء، ومظاهر التجديد التي تحملها نظريته التقويمية.

الكلمات المفتاحية: التراث، طه عبد الرحمن، الإنشاء والاعتراض، المقاصد.

Abstract:

There have been many intellectual projects in contemporary Arab thought, which have taken heritage as a starting point for achieving social change and the civilizational advancement of the nation. Their owners have presented perceptions and theories about heritage according to multiple studies and cognitive references in light of different doctrines, philosophical currents and analyzes that have split into the arena of Arab Islamic thought.

Perhaps one of the most prominent contemporary projects and readings that have a reputation and presence in contemporary Arab thought, we mention the theory of heritage evaluation of the Moroccan thinker and philosopher Taha Abdel Rahman, who provides a reading of the heritage text according to an unprecedented approach that takes a holistic and integrative view of heritage and not a partial and differential view, with original tools and not tools Movable.

This article aims to know the reasons for Taha's establishment of the theory of heritage and the reasons for objecting to the previous theories, in addition to knowing the purposes that this creation aims at, and the aspects of renewal that his assessment theory carries.

Keywords: heritage, Taha Abdurrahman, Creation and objection, purposes.

[1]- المرسل المؤلف.

مقدمة:

لقد انشغل الإنسان المعاصر بكثير من القضايا الفكرية، والتي أصبحت تأخذ الطابع المستقبلي للمجتمع، كقضايا الحداثة والعولمة وصراع وحوار الحضارات وحقوق الإنسان وغيرها، ولعل من بين القضايا الملفتة للنظر والبارزة في الساحة الثقافية والفكرية، والأكثر اتساعا وإثارة للجدل نجد قضية التراث، فالتراث يعد بمثابة الشخصية المحددة للمجتمع، ويعطي هوية الأمة وفكرها، ويشكل ثقافتها ويميزها عن باقي الأمم والدول، وبدونه تتفكك وتضمحل. وبذلك يمكن القول أن للتراث أهمية كبرى في حياة الشعوب، فهو الأساس التاريخي لحضارة الأمة والخيط المتين لبناء المستقبل، فالإنسان العربي المسلم يحمل دائما في صدره هم الهوية أو هم الذات، فلا بد له أن يرجع إلى تراثه طالبا فيه ما يقيم أو يقوي به بنية هذه الهوية. فمنذ مطلع النهضة العربية الحديثة والعالم العربي الإسلامي، يسعى إلى تحقيق نوع من التكافؤ بينه وبين الغرب، وهذا في الوقت الذي شهد وضعه تأزما نتيجة تغلغل الفكر الغربي في الفكر العربي في ظل الوجود الاستعماري، ومحاولته بكل أدواته ووسائله القضاء على هوية وثقافة الشعوب العربية الإسلامية ونسف كل مقوماتها الحضارية، فضل الفكر العربي الحديث يصارع التحولات والتغيرات.

ونظرا لهذه الأهمية التي يكتسيها التراث، اقترح العديد من المفكرين والدارسين مع مطلع الستينات من القرن العشرين حلولا للنهوض بالأمة العربية الإسلامية من جديد، حيث ظهرت مشاريع وقراءات نهضوية عربية متعددة ومختلفة في الفكر العربي الإسلامي، والتي ركزت على موضوع التراث والانطلاق منه كقاعدة أولية في عملية تحقيق التغيير الاجتماعي والتنمية الحضارية، ولعل من هذه المشاريع نذكر: مشروع حسين مروة ومحمد عابد الجابري وناصر حامد أبو زيد ومحمد أركون وغيرهم. حيث قدم فيها أصحابها تصورات ونظريات حول التراث بدراسات متعددة المناهج والمرجعيات المعرفية في ضوء مذاهب وتيارات فلسفية وتحليلات مختلفة انشطرت إليها ساحة الفكر العربي الإسلامي.

ولعل من أبرز المشاريع والقراءات المعاصرة التي لها صيتها ووجودها في الفكر العربي المعاصر، نذكر نظرية تقويم التراث عند المفكر والفيلسوف طه عبد الرحمن، الذي قدم قراءة عقلانية وعملية للتراث، والتي تأسست على منهجية معكوسة لمنهجية محمد عابد الجابري، حيث سعى طه من خلال قراءته التقويمية تقديم قراءته للنص التراثي وفق منحى غير مسبوق يأخذ بالنظرة الشمولية والتكاملية إلى التراث وليس بالنظرة التجزيئية والتفاضلية، وبأدوات مأصولة وليس بأدوات منقولة.

إن أهمية هذه الدراسة جاءت لأجل معرفة النظرية التقويمية للتراث عند طه عبد الرحمن، وبالضبط معرفة دواعي نشأتها، وأهم المقاصد الثانوية في نظريته، هذا إلى جانب سعينا على معرفة أهم المظاهر التجديدية التي تحملها، والتي تميزها عن بقية الدراسات السابقة للتراث.

ومنه فإن الأسئلة الإشكالية التي يمكن طرحها في هذا المقال: ما هي أهم دواعي إنشاء نظرية تقويم التراث العربي الإسلامي عند طه عبد الرحمن؟ وما دواعي اعتراضه على النظريات التقويمية السابقة له؟ وما مقاصد إنشاء نظريته؟ وما هي أهم مظاهر التجديد التي تحملها نظريته التقويمية؟

أولا: دواعي إنشاء نظرية تقويم التراث

لا شك أن كل عمل فكري، وإلا تحدده جملة من الدوافع والأسباب، ونظرية تقويم التراث عند طه عبد الرحمن، ليست بمعزل عن هذا الجانب، حيث تقف وراءها عدة أسباب، والتي يمكن تصنيفها إلى صنفين اثنين: أسباب عامة غير مباشرة وأخرى خاصة مباشرة.

1- الأسباب العامة:

وتتمثل فيما أحدثه الصدام بالحضارة الغربية من انقلاب في القيم، والمفاهيم وما ترتب عليه من جهل في فقه التراث، والتطاول على مضامينه وتقطيع أوصاله وتخطئ أصحابه، وتشويهه عند اغلب منتقديه، بإخضاعه لمناهج وآليات خارجة عن تربته. مما أدى إلى وقوع" انقلاب في القيم بين المشتغلين بتقويم التراث، فما كان يجب أن يعظم من معان متأصلة ذهبوا إلى تحقيره من غير تحسر، وما كان يجوز تحقيره من وسائل مقتبسة، ذهبوا إلى تعظيمه من غير تقتر، كما لو أنهم يتنافسون في تثبيط العزائم، وتفريق الشمل عند مخاطبيهم"[1]. هذا الأمر أدى بالدارسين له السير في "مسار معكوس في تقويم التراث"[2]، فكيف يقوم التراث الإسلامي بأدوات منهجية مستمدة من خارجه؟ وهل لهم القدرة على انتقاد المنقول المفصول عنا وتمحيصه واختبار مدى مطابقته لمتطلبات واقع المسلمين؟ كما حدث انقلاب في القيم بين المشتغلين بتقويم التراث، حيث تقلبت المقاصد وتشتت المسالك، فشاع التمويه والتزييف في تقويمه، حتى أضحى ذلك التمويه باطلا مشهورا لا خصيم له.

على ضوء هذا الانحراف القيمي والاعوجاج المنهجي والنأي عن المقاصد، جاء طه بكتابه" تجديد المنهج في تقويم التراث" كرد علمي ومنهجي على هذه الدراسات النقدية للتراث، داحضا أباطيلها وأوهامها، فكان بذلك طلب الحق ديدنه، حيث يقول: "لا جرم أننا نكره الخصومة، لكن الباطل أكره إلينا...لا جرم أننا نحب النصرة، لكن الحق أحب إلينا"[3].

2- الأسباب الخاصة المباشرة:

وتتمثل في الإحساس بالمسؤولية تجاه السكوت عن الظلم الذي يتعرض له التراث العربي الإسلامي، من طرف النقاد من المتفلسفة العرب المندمجين في تيار الحداثة الغربية المزعومة، لذلك قضى ردحا من الزمن متأملا في انقلاب القيم بين المشتغلين بتقويم التراث العربي الإسلامي. حيث يقول طه:" وقد أفنينا قسطا من عمرنا نتأمل هذا الانقلاب في القيم بين المشتغلين بتقويم التراث"[4]، مدركا مقصد هؤلاء المندمجين، وهو "إخراج المتلقي العربي من التعلق بالتراث الذي صنعته أمته إلى التعلق بتراث من صنع أمة سواها"[5]، ذلك لأن" لو فرضنا أن أحدا ترك الاهتمام بتراثه الأصلي، فلا يلزم من ذلك الانقطاع عن كل تراث، بل يلزم منه...أنه سيتجه إلى الاهتمام بتراث غيره، لافتقاره إلى مستند لذاته، فالذي يدعو باسم الحداثة إلى الكف عن الرجوع إلى التراث، والأخذ بالمعرفة الحديثة كما جاء بها الغرب، فإن دعوته لا تعدو كونها تستبدل مكان الانشغال بالتراث الأصلي الانشغال بتراث أجنبي، ذلك أن المعرفة الحديثة تجد سندها في التراث الغربي وتبقى حاملة لسماته وآثاره"[6].

وبعد التأمل في هذا الانقلاب في المقاصد والاعوجاج في المسالك، شعر طه بالمسؤولية الأخلاقية التي ترمى على عاتقه، بتقويم هذا الاعوجاج وتصحيح المسار، ووضع العربة موضع سكتها، حيث يقول: "وقر في صدرنا أن المسؤولية واقعة علينا في الكشف عن خفي الأوهام وعن دقيق التلبيسات التي أنبنى عليها هذا المسار المعكوس في تقويم التراث...وتحقق شعورنا بشغل ذمتنا بواجب التنبيه على ما ظهر فيه من التمويه، فتحركت داعيتنا لوضع هذا الكتاب، حتى لا نسال من الخلق في العاجل ومن الخالق في الآجل، عن صمتنا حيث كان يجب أن نتكلم، وعن تركنا حيث يجب أن نعمل، وحتى لا يقال بأن الحق مطمور لا نصير له ..."[7].

أمام هذا المسار المعكوس في تقويم التراث، كان الشعور بالواجب والإحساس بالمسؤولية لإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، أدرك طه أن الانقلاب في القيم يجعل الحق بين الناس أمرا مستورا، والباطل بينهم أمرا مشهورا، فجاء مشروعه الفكري في قراءة التراث، دفاعا عن التراث كونه يعد روح الأمة وقلبها النابض، "طلبا لإظهار ما عظم من مزاياه ولتمحيص ما شاع من الأقوال القادحة فيه، إيمانا منا بأن التراث كان ولم يزل روحا لا حياة لفكر دونها، إلا أن يلقى في أحضان تراث غيره يستلبه استلابا"[8]، ولذلك كان مشروعه الفكري والفلسفي عموما ومشروعه في تقويم التراث خصوصا، هو هدم للباطل، وإقامة لحق زاغت عنه العقول.

إن الاشتغال بالتراث أصبح ضرورة لا تتعلق بالماضي فحسب، بل متصل بالحاضر ومستشرف للمستقبل، الأمر الذي أدى إلى تكاثر التأليف والأعمال التي تتخذ من التراث موضوعا لمختلف المشاريع الفكرية، والتي يختبر من خلالها أصحابها قوة مختلف الآليات المنهجية والعدة المفاهيمية والاصطلاحية المتسلح بها، وهذا بغية الانتقال من واقع ظالم إلى واقع حالم.

ثانيا: أسباب اعتراض طه على القراءات السابقة للتراث

إن سعي طه إلى بناء نظرية جديدة في تقويم التراث روحا ومنهجا، يقتضي منه لا محالة الاعتراض على مختلف المشاريع الفكرية المقاربة لقراءة التراث، والتي سبقت ظهور كتابه سنة 1994 بتمحيصها والتحقق منها علميا ومنهجيا، أي بالنظر إلى حقائقها ووسائلها. ولعل من الأسباب التي دفعت طه إلى الاعتراض على مختلف المشاريع الفكرية في تقويم التراث، نجد:

- الجهل بحقيقة التراث روحا ومنهجا، حيث حصل عند أصحاب المشاريع الفكرية الاندماجية في الحداثة العالمية المزعومة، قصور في التحقق بمعاني التراث، أو قل قصور في معرفة أسرار المناهج التي سلطوها عليه. حيث يقول طه:" والحق أن قلة اطلاعهم على معارفه، وضعف استئناسهم بمقاصده، لا ينازع فيهما إلا من هو أقل علما وأضعف أنسا، ولا أدل على ذلك أمرين: قلق عبارتهم ونقص عملهم، أما قلق عبارتهم فينطبق به على ما انشأوا من أقوال لا تستقيم على أصول التبليغ العربي السليم... وأما نقص عملهم فينبئ عنه إتباعهم الشاذ والغريب من الأقوال..."[9].
- استجلاب المناهج واقتباسها من خارج التراث، تقليدا وجمودا، ذلك أن أصحاب المشاريع النقدية حول التراث استلذوا التقليد، إذ توسلوا بأدوات بحث غيرهم، وتبنوا مفاهيمهم ونظرياتهم، دون أن يحصل عندهم هضم وتمثل تلك المناهج ولا امتلاك ناصية تقنياتها، فعجزوا كل العجز عن الاستقلال - الإبداع الموصول.

فقد أزعج هذا الأمر طه أيما إزعاج، وجعله ينظر إلى هذه الأعمال النقدية حول التراث الإسلامي، على أنها "لا تعدو كونها تمارين يتدرب فيها العربي على استعمال هذه الأدوات المقتبسة"[10].

إن اشتغال طه بموضوع التراث، لم يكن أمرا اختياريا بقدر ما كان أمرا اضطراريا، نظرا لما تعرض له التراث العربي الإسلامي من التعسف المنقطع النظير من طرف رواد الحداثة العربية والمندمجين في رحاب الحضارة الغربية، من أمثال عبد الله العروي، محمد عابد الجابري، محمد أركون، طيب تيزيني، وهشام جعيط وغيرهم، حتى أن بعضهم وصف هذه الظاهرة بمذبحة التراث. يقول طه معبرا عن هذا الأمر "لم يكن همي في بداية أبحاثي الأكاديمية الاشتغال بالتراث، لكنني اضطررت إلى الاشتغال بهذا الموضوع عندما رأيت ما في الأبحاث والدراسات التي أنجزت عن التراث من الخروج عن المقتضيات المنطقية والمنهجية في معالجة هذا الموضوع، ولما كانت تلك الدراسات تستند إلى اقل ما يقال فيها بأنها تعسفية لم

تتردد في أن تسلط على التراث بعض المقولات الماركسية أو البنيوية أو التفكيكية، وهكذا كان الباحث يتقلب بتقلب الأدوات التي كان يستخدمها الغرب، فيقوم باستنساخها وتطبيقها على التراث"[11].

- وأد الشعور بالتراث، بالقدح فيه والتطاول عليه وتشويهه، فأصحاب المشاريع من دعاة الانقطاع عن التراث، والعمل على هدمه، حينما توسلوا باليات عقلانية أيديولوجية من خارج التراث الإسلامي، واهتموا بالمضامين وبالنظرة الانتقائية التفاضلية التجزيئية. فهل يستطيع الإنسان أن ينفصل عن تراثه مطلقا؟ وهل يمكن الانقطاع عن القيم الإنسانية الخالدة؟ إذ لا انقطاع عن كل سابق إلا حينما يستنفذ مكامن الإبداع فيه[12]. كما أن أصحاب هذه المشاريع الخاصة بقراءة التراث، قد ركبوا الفكرانيات المسيسة- الأيديولوجيات- في نقد التراث، وذلك حينما اخضعوا النصوص للقيم التسييسية تحقيقا للتدافع من اجل السلطة*.

- النظر إلى المضامين التراثية، بوسائل مغايرة، فمنهجية المشاريع تم جلبها من مجالات بعيدة عن حقيقة التراث، أي مغايرة عن المجال التداولي الإسلامي، فآلياتهم منقولة من مجالات متنافرة سماها بالآليات الاستهلاكية، وحصرها في صنفين: آليات عقلانية واليات فكرانية (أيديولوجية وبذلك عجزوا في الاستقلال عن مناهج غيرهم، ولم يختبروا تلك الآليات الاستهلاكية في أصولها، ولم يخضعوها للنقد حتى تتضح مواقفهم من القضايا التراثية، فهم عاجزون عن الاستقلال عن تلك المناهج والإتيان بما يقابلها ولو على نمطها[13]. حيث يقول: "فمن يترك نقد أداة لم يتول بنفسه صنعها، لا يبعد أن يكون هذا الترك راجعا إلى عدم التمكن منها، ومن لم يتمكن من الأداة التي يعمل بها، لا يبعد أن يسيء استعمالها"[14].

إن المناهج التي يستخدمها الدارسين والنقاد الغربيين على تراثهم المسيحي واليهودي، لا يمكن إسقاطها وتعميم صلاحيتها على التراث العربي الإسلامي، ذلك لأن اختلاف السياقات التاريخية والاجتماعية والثقافية واللغوية، يفرض بالضرورة تباين آليات ومناهج الدراسة العلمية للتراث.

وتبرئة لذمة المسؤولية، سعا طه لإيجاد منهجية علمية تناسب خصوصية تراثنا، ولا تكون وافدة علينا خارجه أو مسلطة عليه بتعسف، وإنما تكون منهجية نقدية مستمدة من داخل التراث نفسه. يقول طه في هذا المضمار "رغم تقديري لهذه المنهجيات الغربية، ورغم اعتباري للنتائج التي توصلت إليها في تراثها الأصلي، وفائدتها في الوصول إلى نتائج مهمة بالنسبة للدراسات العربية، كنت لا أرى مثل تلك الفائدة بالنسبة لنقلها إلى التراث الإسلامي، فقلت في نفسي لا بد من إيجاد منهجية تناسب خصوصية تراثنا، ولا تكون واردة من خارجه أو مسلطة عليه بتعسف، بل لا بد لهذه المنهجية النقدية أن تنبعث من الداخل، فالمطلوب إذا هو أن تستمد المنهجية التي نقوم بها تراثنا الإسلامي العربي من التراث نفسه"[15]، أي فهم التراث بالتراث ذاته، "إن التراث يجب أن يحاكم بأدوات إنتاجه، فلا يمكن أن يحاكم بأدوات إنتاج تراث آخر"[16].

- الفصل بين المعرفة والسلوك، فأخطر ما في هذه المشاريع في نظر طه الفصل بين المعرفة والسلوك، فهم أصحاب العلم المنفك عن العمل، إذ قطعوا الصلة بالشرع بالسلوك، بالعمل، وقويم التراث يقوم على قطبين: العلم والعمل.

كانت هذه أهم الدوافع التي دفعت طه إلى الاشتغال بموضوع تقويم التراث - كمرحلة استثنائية مؤقتة- آملا النهوض به، وانتشاله من هذا الاعوجاج المنهجي والانقلاب القيمي، الذي جاءت به دراسات وجهود الجابري النقدية، التي اكتسبت هالة معرفية ووجودية في الفكر العربي عامة والفكر المغربي بصفة خاصة. فقد انخرط طه في ملحمة التراث متأخرا، ووجد أمامه ركاما من الأبحاث، مستغربا في الوقت ذاته

الأحكام المتسرعة، التي أصدرها المفكرون العرب في حق التراث. ومن خلال استقرائه لهذه الأبحاث، وجدها أنها تصدر عن رؤية واحدة تتمثل في تجزئ التراث إلى جزر منفصلة، والمفاضلة بين أجزائه، وقد برر طه هذا الأمر إلى إنزال آليات عقلانية وتسييسية عليه، فالعقلاني ينتقي الجوانب العقلانية من التراث والتسييسي يفضل المواقف الثورية التثويرية، حيث يقول طه" تسليط آليات العقلانية النظرية المجردة على التراث... كان لا بد من أن يفضي إلى قطع الصلات بين أقسام التراث، وذلك بانتقاء بعضها، وإسقاط بعضها الآخر"[17].

سعى طه إلى هدم تلك المشاريع، وبيان تهافتها، حيث تعرض في القسم الأول من مشروعه إبطال التقويم التفاضلي للتراث في نموذج الجابري، حيث كشف تقويمه التجزيئي وقصوره الآلي، واشتغاله بالمضامين وتوسله بآليات منقولة، مع نزوحه نحو العقلانية المجردة، والفكرانية المسيسة. فقد وجد في كتب الجابري الثلاث: "نحن والتراث" و"تكوين العقل العربي" و"بنية العقل العربي" النموذج الأمثل لما يخالف نظرته الخاصة لقراءة التراث. ولذلك يصرح قائلا عن هذا النموذج:" أن قراءة الجابري "الابستمولوجية أتت من العثرات المنهجية والثغرات في المعلومات ما قد يرفع قراءته في التراث القيمة العلمية المزعومة، ويشكك في صلاحية استثمار مقرراتها في مجال الدرس التراثي"[18]، كما لا حظ طه، أن الجابري أقحم في تحليله للتراث آليات منقولة، وضعت في أصلها لموضوعات مغايرة لموضوع التراث من قبيل: "القطيعة" و"النظام المعرفي" و"اللامعقول" و"الأكسيومية"... واعتبر هذا التصرف يخرج التراث في صورة لا تحافظ على بنيته في تداخل أجزائها وتساند عناصرها.

ثالثا: مقاصد إنشاء النظرية التراثية: من مقاصد نظرية طه في تقويم التراث نجد:

- زحزحة التقليد الذي غشي تقويم التراث الإسلامي، حيث سعى إلى كشف مختلف أوهام القراءات المعاصرة للتراث، وهدم المشاريع التي وظفت الآليات الاستهلاكية المنقولة، وبيان قصور منهجيات العقلانية المعاصرة، والتي أخذت تفقد دقتها حتى في موطنها الأصلي[19].
- قلب القراءة التراثية، إذ أصبح المحور الرئيس هو الآلية ثم المضمون، لكون الآلية هي التي تحدد النتائج سلفا، فالتراث عندما يقرا بآلية منقولة من بلازما ثقافية خارجية ستقودنا حتما إلى نتائج مترتبة فوق طبيعة تلك الثقافة.
- السعي إلى بلوغ الحقيقة لذاتها، فنقده للقراءات المقلدة، كان نقدا موضوعيا، "كان من باب تصحيح المعرفة وتنويع الإنتاج والاشتراك في طلب الحقيقة"[20]. فهو يقول: "الفيلسوف الحقيقي الأخلاقي بطبعه، فلا يتحزب أو يتقلب...وإنما يطلب الحق حيثما جاز وجوده"[21].
- وضع قواعد جديدة في ممارسة قراءة التراث وهي:

الأولى: التوسل بآليات النص لفهم مضامينه.

الثانية: الاعتماد على ما استجد في باب المناهج الفكرية والفلسفية.

الثالثة: اعتماد آلية التقريب عن طريق نقد الآليات المقتبسة من التراث الأجنبي وتمحيصها، حتى تتبين كفايتها الوصفية أو التفسيرية أي إخضاعها لتحويلات تصحيحية مختلفة.

الرابعة: ضرورة تنقيح وتلقيح الآليات المجلوبة، بواسطة الآليات الإسلامية العربية.

- ضرورة وضع حد للقراءات التجزيئية للتراث، واستبدالها بالقراءة الكلية الشاملة.
- ضرورة التصدي للعقلانية المجردة، وتفاقم التبعية والاستمداد من ثقافة مجالها التداولي مختلف مع الإساءة في فهم كل ما هو مجلوب.

يرى طه بأن الجابري وقع مفارقة ذات وجهين، الوجه الأول انه صرح في كتابه تكوين العقل العربي، بأنه يستند في فحصه للعقل العربي على أرقى النظريات العلمية التي تقارب موضوع العقل، إلا أن ما اعتمد عليه كان متجاوزا ومتقادما في الساحة العلمية، أما الوجه الثاني أساء فهم عبارة فقيه العلم (غونزيت) التي بنى عليها اختلاف العقول باختلاف الميادين المعرفية. حيث يقول طه: "أن التصور العلمي الأرقى للعقل، الذي يدعي الجابري، تحصيله، والتوسل به في بناء نظرية للعقل، مدخول من جانبين اثنين:

أ- تقادم دراسات فقه العلم، أو الابستمولوجيا التي استند إليها.

ب- فساد فهمه لعبارة (غونزيت) إذ حملها على نقيض ما تدل عليه[22].

- الانصراف إلى تحديد الآليات اللغوية والمنطقية وبناء المصطلحات وتحديدها، وتوليد الأفكار من اجل بلورة نظرية جديدة.
- إدانة الوضعية الفكرية في العالم العربي الإسلامي، بوقوعه فيما سماه الآفات التداولية ودفاعا عن الجانب الروحي في الإسلام، بالجمع بين القيمة الروحية والعلم، والقيمة الخلقية والواقع.

أ- إذا كانت أصول التداول هي: العقيدة واللغة والفكر.

ب- وكانت وظائف التداول هي: الإنهاض والإنتاج والتوجيه.

ت- فإن الوضع حاليا لا يحقق هذه الوظائف، ويقع في آفات التداول.

ث- العقيدة عرفت التثاقل والقعود والسهو فتعرضت للتقليد والتجريد والتظاهر.

ج- واللغة عرفت التقصير واللغو والاحتباس فتعرضت للتحجير والإهمال والتدجين.

ح- والمعرفة عرفت التوقف والتكاسل، فتعرضت للاجترار والاستهلاك والتمويه.

وخلاصة الوضعية الراهنة: جحود عقدي، جمود لغوي، خمود معرفي[23].

رابعا- مظاهر التجديد في نظرية قراءة التراث:

لعل من أبرز مظاهر التجديد الطهائي في مقاربة إشكالية التراث نجد ما يلي:

- الاحتكام إلى المجال التداولي الإسلامي روحا ومنهجا، فالتراث، كان انعكاسا وانبثاقا عن عناصر هذا المجال، الذي يشتمل" اللغة المستعملة، والثوابت العقدية، وجانب من الممارسة المعرفية"[24].
- التحرر من أي سلطة فكرية غربية توجه البحث في مجال التراث، وهذا بغية تحصين الهوية وحمايتها من التشويه أو الذوبان.
- وضع ما سماه الآليات الإنتاجية التي رتب قوانينها، وبين خصائصها، فأصبح مشروعه هرما معماريا من المصطلحات والمفاهيم التي تم تشكيلها انطلاقا من تكوينه الروحي والفكري. فقدم منهجا متفردا في دراسة التراث، وكان جريئا إلى ابعد الحدود في بناء نسقه، وفي اعتماد ذاته على طلب الحقيقة، ومن ثمة رمى أصحاب مشاريع تقويم التراث لهذا العصر بالعقم، حيث كشف تطفلهم وبين قصور قدراتهم الفكرية، خاصة باعتمادهم مناهج خارجية، وتقليدها حذو النعل بالنعل، فهو فيلسوف وجهته كانت التميز والاستقلال والإبداع، وليس المطابقة والتبعية والتقليد. فهو يرى أن أهم ما يميز مشروعه هو "الخروج عن الطريق الذي اتبعه مفكرو الغرب والعرب على السواء في تقويم التراث الإسلامي العربي"[25].
- ابتكار صياغة عربية دقيقة ومشرقة للآليات الإنتاجية، صياغة أعادت للبيان العربي توهجه وشموخه، مما تيسرت معها سبل الإقناع، مبطلا باجتهاداته مفعول مشاريع القراءات الجديدة للتراث، بكشفه لعيوبها من حيث مناهجها، وما يدعيه أصحابها من فتوحات في ميدان الفكر.

- نسف كثير من الادعاءات وزعزعة كثير من الأفكار، فقد تهاوى بظهور كتبه في مجال التراث، بعض الرموز التي بلغت شهرتها بعيدا في عالم التنوير والعقلانية والحداثة، حيث كان لاجتهاداته الفكرية الريادة التي تعتد بها معظم العقول على امتداد واسع في العالم العربي للنظر في القضايا الفكرية المصيرية للأمة.
- نسف مسألة القطيعة بين شرق العالم الإسلامي وغربه، بالاحتكام إلى آليات التداخل، حيث قدم رؤية جديدة لمسألة التفاعل بين الثقافات، جاعلا المنقول يتأصل بالتقريب التداولي.
- تجديد علم الكلام، حيث نقله طه من الصراع الأيديولوجي والنظري، حول الصفات والذات ونظرية الجزء الذي لا يتجزأ، والكلام الإلهي وطبيعته... وغيرها من القضايا التي لا يتولد في مجملها إلا الخوض في إنشاء المذاهب والمقالات إلى النظر في منهجها العقلاني الاستدلالي، يقول طه" أن الحوار لا يوجد إلا حيث يوجد الاختلاف في طرق البحث... إذا تواصل الحوار بين الأطراف المختلفة فئات أو أفراد يعطي مع مرور الزمن تقليص شقة الخلاف بينهم" ويردف أيضا بان منهجية الحوار أو المحاورة المستشفة من علم الكلام إنما تسهم كثيرا في توسيع العقل وتعميق مداركه بما "لا يوسعه ولا يعمقه النظر الذي لا حوار معه" ويحقق عن هذا إن المنهجية الكلامية تسعف الفكر العربي الإسلامي المعاصر من إنشاء علاقات جديدة ومثمرة كعلاقة الدين بالعلم وعلاقة العقل بالوحي وعلاقة القول الفلسفي بالإنسان والله[26].

خاتمة:

بناء على ما تم عرضه في هذه المقال، نجد:

أن نظرية تقويم التراث عند طه عبد الرحمن لم تنشأ اعتباطا، وإنما جاءت اعتراضا على النظريات السابقة، وبالأخص نظرية محمد عبد الجابري، هذه النظرية التي اكتست نوعا من الهالة الفكرية - بعد مؤلفه نحن والتراث- حيث اخضع طه هذه النظرية إلى مبضع التشريح والنقد، جاء بنظرية جديدة في تقويم التراث، لم يأت بها الأوائل في مجال المعرفة، حيث جاء بنظرية وصفت الشمولية والتكاملية، منطلقا من قواعد منهجية مستمدة من طبيعة التراث ذاته- المجال التداولي- عقيدة ولغة ومعرفة، حيث توسل فيها منهجيا بآليات مأصولة غير منقولة.

لقد قام بتصحيح أخطاء النقاد العرب السابقين الذين قدموا قراءة للتراث، والتي أوقعتهم في خطا منهجي بارز، والذي أدى بالإخلال بتكاملية التراث، هذا الإخلال الذي أرجعه طه إلى نزعتين اثنتين استحكمت استحكاما في قراءة التراث وهما:

النزعة التجزيئية التي ركزت على الاشتغال بمضامين التراث، والإعراض عن النظر في الآليات والوسائل إلى إنشائه، بينما الأصل في قراءة النص التراثي هو مطالبة النص بالتدليل على وسائله ومضامينه الظاهرة والخفية، ذلك أن المضمون التراثي لا يستقيم حتى يسبقه البحث في الوسيلة التي وضع ونقل بواسطتها. وإذا كان كذلك رد فعل ضد القراءات التفاضلية والتجزيئية للتراث التي تبحث فيه عن نتائج مسبقة، وبأدوات مستوردة.

النزعة التفاضلية، وتتمثل في تقطيع التراث إلى جزر منفصلة، وتفضيل بعضها على بعض، والإبقاء على جزء منها فقط، بدعوى أنه الجزء الوحيد الذي يعيش معنا في هذا العصر ويستجيب لمتطلباته.

بهاتين الخاصين أخل النقاد العرب بأهم خاصية للتراث وهي الصفة التكاملية، فالتراث العربي الإسلامي كل متكامل مكوناته، متداخل عناصره، فلا يمكن فصل مضامينه عن الآليات المنهجية التي تولدت بها.

الاحتكام إلى المجال التداولي روحا ومنهجا في قراءة التراث، كون التراث انعكاسا لهذا المجال بعناصره اللغوية والعقدية والمعرفية.

مساهمة طه في تصحيح مسار الفكر العربي المعاصر، وهذا عن طريق الاجتهاد والإبداع، والنأي عن كل مظاهر التقليد التي أدمنها دارسوا التراث ردحا من الزمن، سواء كانوا من الإسلاميين أو المندمجين في الحداثة الغربية والتي انجر عنها التخلف والجمود، إذ هي تعتبر نماذج فشلت في تقديم منهج علمي محكم يمكن من التعرف على البناء الداخلي للتراث العربي الإسلامي، وبذلك يكون طه قد فتح عهدا جديدا في الممارسة النقدية تقوم على أساس استعادة الثقة بالتراث لا إلى محوه وتحقيره، وإنما مكامن قوتنا تكمن فيه، وذلك باعتباره جزء لا يتجزأ من كينونة امتنا وهويتها.

إن اجتهاد طه، اجتهاد منهجي تصحيحي للمسار المعكوس الذي اتخذه نقاد التراث العربي الإسلامي المندمجين في الحداثة الغربية، وتقويم للانقلاب القيمي الذي وقعوا فيه، وذلك لكون أن ما يجب أن يعظم من معان متأصلة ذهبوا لتحقيره دون أي تحسر، وما كان يجوز تحقيره، ذهبوا إلى تعظيمه وتقديسه وكأنهم يتنافسون في تثبيت العزائم وتفريق الشمل عند مخاطبيهم.

ومنه يمكن القول إن نظرية تقويم التراث عند طه عبد الرحمن مقاربة علمية جديرة بالتقدير والاهتمام، وإنها عمل تجديدي بالنسبة للفكر الإسلامي، لأنه اجتهاد نظري في التراث يخرج عما آلفه الناس من النظريات في هذا المجال، إذ أتى بشيء غير مسبوق في بابه، ولا مطروق في مناهج قراءة التراث عند رجال الفكر الإسلامي. ولعل تحصيل الرجل للمناهج التراثية والمناهج الحديثة وسبر أغوارها وأسرارها، مكنته من القدرة على تجاوز طور التقليد في باب المناهج والنظريات إلى طور الاجتهاد والإبداع فيهما.

قائمة المصادر والمراجع:

1- طه عبد الرحمن، روح الحداثة مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، بيروت، ط1، 2006.
2- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط4، 2010.
3- طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2011.
4- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط4، 2012.
5- طه عبد الرحمن، سؤال العمل بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، بيروت، ط2، 2012.
6- طه عبد الرحمن، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، بيروت، ط3، 2013.
7- يوسف بن عدي، أطروحات عن الفكر العربي المعاصر، منشورات دار التوحيدي، الرباط، ط1، 2015.

الهوامش:

[1]- طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط4، 2012، ص 11.
[2]- المصدر نفسه، نفس الصفحة.
[3]- طه عبد الرحمن: روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، بيروت، ط3، 2013، ص 16.
[4]- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، مصدر سابق، ص 11.
[5]- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط4، 2010، ص 19.
[6]- طه عبد الرحمن: حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص16.
[7]- المصدر نفسه نفس الصفحة.
[8]- المصدر نفسه، ص 9.

[9]- المصدر نفسه، ص10.
[10]- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مصدر سابق، ص 135.
[11]- المصدر نفسه، نفس الصفحة.
[12]- طه عبد الرحمن، روح الحداثة مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، لبنان، ط1، 2006، ص 39.
* الجابري يتعاطى الفلسفة انطلاقا من انتمائه إلى حزب سياسي يساري، فهو يعد من الفلاسفة القلائل الذين جمعوا بين الاشتغال الفلسفي والعمل السياسي، فرغم إعلانه اعتزال العمل السياسي فإن جل إنتاجه ولد في الفترة التي سبقت اعتزاله، أي تلك الكتابات التي تزامنت مع ممارسته للعمل السياسي الحزبي. كما انه يعد من بين المثقفين العرب الذين اشتغلوا بالثقافة والسياسة في آن واحد، إذ تأرجح طوال مسيرته الفلسفية بين التعمق في قضايا التراث العربي والعقل العربي... وبين الانخراط في العمل السياسي. وكثيرا ما مال إلى اعتقاد، مفاده أن المثقف الحقيقي، هو الذي يجب أن يظل دائما "فوق السياسي"، أي أن المثقف هو الذي يوجه السياسي، وأن السياسات التي يبنيها السياسي، يكون بناءها منبنيا على ما وصل إليه المثقف من التأسيسات النظرية.
[13]- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، مصدر سابق، ص11.
[14]- المصدر نفسه، ص 42.
[15]- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مصدر سابق، ص 136.
[16]- المصدر نفسه ص 141.
[17]- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، مصدر سابق، ص 27.
[18]- طه عبد الرحمن، حوارات من اجل المستقبل، مصدر سابق، ص 25.
[19]- المصدر نفسه، نفس الصفحة.
[20]- المصدر نفسه، ص 27.
[21]- المصدر نفسه، ص35.
[22]- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، مصدر سابق، ص 44.
[23]- المصدر نفسه، ص 260.
[24]- طه عبد الرحمن، سؤال العمل بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، بيروت، ط2، 2012، ص 39.
[25]- طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، مصدر سابق، ص 144.
[26]- يوسف بن عدي، أطروحات عن الفكر العربي المعاصر، منشورات دار التوحيدي، الرباط، ط1، 2015، ص ص 251-252.